الفصل الحادى عشر

من عساه يفوز بإدارة المسجد ؟

لم يكن لسعيد رمضان منافسون ذوو ثقل يعتد به فى صراعه للسيطرة على مشروع بناء مسجد ميونيخ. فرجال من أمثال "على قنطمير" قد يكونون قد حظوا باحترام فى بلدانهم ومجتمعاتهم، إلا أن الحرب الكونية الثانية كانت قد أوهنت عزائمهم ... فالرجل كان ذا عينين كليلتين لا يكاد يرى بهما، وكان يحيا على بعض مئات من ماركات ألمانية يتحصل عليها لقاء تحريره النسخة العربية من جريدة الأمكومليب ... أما رمضان فكان يذرع أربعة أركان المعمورة سعيا لقيادة ثورة نهضوية إسلامية.

obeikandl.com

ففى رسالة وجهها إلى أستاذه بتاريخ السادس عشر من تموز/ يوليو ١٩٦٠، كتب رمضان يقول: "عزيزى البروفيسور كيغل ... أكتب إليك وقد عدت لتوى من المملكة العربية السعودية وشرق إفريقيا. لقد كانت رحلة ماتعة للغاية. ففى الصومال، شهدت مولد الجمهورية هناك، وكم كانت فرحتى حين رأيت أصدقائى الصوماليين القدامى ممن كانوا فى المنفى وقد تبوءوا مناصب مرموقة فى الجمهورية الوليدة ... إذ تولى أحدهم منصب الرئاسة، فكان بذلك أول رئيس للبلاد[٩٢]، فى حين تولى صديق آخر منصب رئيس الوزراء[٩٣]". هذا، وقد عاد رمضان إلى أوروبا حيث وجد ناشرا لكتابه، أو بالأحرى أطروحته للدكتوراه، ليذهب بعدها إلى الأراضى الحجازية لتأدية فريضة الحج، ثم يقوم بعدها برحلة قصيرة فى أنحاء أوروبا قبل أن يتجه صوب تركيا وباكستان.

وفى إحدى محطاته الأوروبية عام ١٩٦٠، خاطب سعيد رمضان لجنة بناء

obeikandl.com

مسجد ميونيخ ليخبر عن نجاح حملته لجمع الأموال اللازمة. وقد كان لرمضان لقاء شخصى بالملك سعود بن عبد العزيز، العاهل السعودى آنذاك، والذى تعهد بمبلغ كبير لبناء المسجد، وكذا الأمر للملك الحسين بن طلال، العاهل الأردنى آنذاك، وعدد من رجال الأعمال من المملكة الليبية وتركيا. كذا، فقد أخبر رمضان اللجنة بأنه قد أنشأ فروعا للجنة فى كل من مكة والمدينة وجدة وبيروت – هذا، ومن الأرجح أن يكون رمضان قد خاطب عددا من القناصل الفخريين[٩٤] لجمع الأموال لبناء المسجد. أما أعضاء اللجنة فقد أبهرهم نشاط رمضان فأجزلوا له آيات الشكر والثناء.

إلا أن البعض ظل قلقا ... من بينهم حسن قصايب الذى كان قائدا لإحدى كتائب الفرقة ١٦٢ مشاة (التركستانية) إبان الحرب الكونية الثانية – والذى ورد ذكره فى مستهل الكتاب. فبعد أن وضعت الحرب أوزارها، تزوج قصايب من مارغريت دولينغر، وشرع فى تكوين أسرة وأصبح تاجر أبسطة وسجاد. هذا، وكان

قصايب قد قبل بمنصب مدير لجنة بناء المسجد لرغبته فى أن يكون هناك مسجد، فلم يكن الرجل ليركن إلى عوالم الملوك والأمراء، وخفايا التحالفات السياسية السرية غير مأمونة الجانب. وكغيره من أعضاء اللجنة، لم يرد إلى ذهن قصايب كون سعيد رمضان قد قصد الشرق الأوسط ... فكان سؤاله: أنى لرمضان وغالب همت بنفقات رحلة كتلك؟ وكانت إجابة رمضان أن مشروع مسجد ميونيخ له فروع ومكاتب فى العديد من بلدان تكفلت بتلك النفقات ... تلك الإجابة التى انطوت على كون المشروع يحظى بقاعدة عريضة من الأتباع فى العالم الإسلامى، بل ربما بين أتباع جماعة "الإخوان المسلمين". وهنا عمد قصايب إلى التحذير من أن ينزلق المشروع فيضحى شديد التسييس، حيث أعلن لأعضاء اللجنة المجتمعين أن "هدفنا هو بناء مسجد فى ميونيخ، لا أن ننخرط فى السياسة مطلقاً".

هذا، وقد اختمرت تلك القضايا على مدار عام بأكمله (١٩٦٠) ... استأنف رمضان خلاله تكتيكاته من سفرة هنا إلى رحلة هناك متحدثا فى المحافل ومهاجما الشيوعية – كل ذلك باسم لجنة بناء مسجد ميونيخ ومصلحة مسلمى ألمانيا ... فيما يكتب قصايب ونمنقانى إلى وزارة الشئون الاجتماعية البافارية ليسألاها أن تتدخل كيما تعود اللجنة إلى مسارها التى أنشئت من أجله ... بيد أن ذلك قد تزامن مع مباغتة المسئولين البافاريين بقدوم "جماعة الإسلام" المفاجئ ... فلا تلقى خطاباتهما جوابا، ليتأزم الموقف خلال عام ١٩٦١، حيث التقى قصايب فى السادس من شباط/ فبراير مسئولين بافاريين ليخبرهم بأن سعيد رمضان قد أضحى يمثل "مشكلة" لأكثر من سبب. فنظرا لنشاطه السياسى المحموم، كان رمضان شخصا غير مرغوب فيه فى العديد من البلدان العربية. "ورغما عن كونه نجم المشهد الإسلاموى"، كما ذهب قصايب، "إلا أن حقيقة الأمر كانت عدم مقدرته على جمع الأموال اللازمة لبناء المسجد. أما الأموال التى تم التعهد بتوفيرها خلال

موسم الحج الماضى فلم يتم جمعها". وفى رسالة بتاريخ ١٩٦١/٢/١٧ إلى مدير الأمن البافارى "فيلهلم بورمايستر"، ذكر قصايب "أن لجنة بناء المسجد لم يكن لديها فى البنوك سوى ٧٨٨٩٠ مارك ألمانى (نحو ١٤٥٠٠٠ دولار أمريكى بأسعار عام ٢٠٠٨)، أما المشروع بكامله فقد قدرت نفقاته بـ ١,٢ مليون مارك (٢,٢ مليون دولار أمريكى بأسعار عام ٢٠٠٨)". هذا، وقد أعرب قصايب عن أمله فى أن يتم إحلال آخر محل سعيد رمضان.

لقد تزامنت أحداث ذلك العام (١٩٦١) مع إرسال "روبرت دريهر" لرمضان لمقابلة "غرهارد فون منده" ... "فون منده"، الذى كان يفكر فى اقتحام مكتب رمضان ... أما ضابط اتصال "فون منده" بجهاز الاستخبارات الألمانية، "زيغفريد أونغرمان"، فقد أقنعه بأن يهجر تلك الفكرة. كذا، فقد ساعدت بعض المقالق فى مكتب "فون منده" فى إثنائه عن الفكرة ... تلك التى كانت لتستدعى باى ميرزا هايبت للانضمام، بيد أن هايبت وولى قيوم قد كانا فى شقاق ونفور، إذ قام قيوم بزيارة هايبت فى بيته فى كولونيا ليخبره بأنه على علم تام بنشاطه لحساب حكومة ألمانيا الغربية ليهرع هايبت إلى "فون منده" الذى أسرع بالكتابة إلى ضابط الاتصال خاصته ليعرب عن قلقه من إلمام قيوم بالترتيبات.

أما الرواتب فكانت هَماً آخر لفون منده الذى لم يكن لديه إلا مخصصات مالية هزيلة، وهو ملمح آخر يشير إلى عجز ألمانيا الغربية عن منافسة أمكوملبب العملاقة. وقد شكا هايبت إلى "فون منده" من أن مهاراته غير مقدرة رغما عن أنه قد عمل لحساب الألمان منذ مهمته فى عملية "تسيبلين"، التى أرساها "فالتر شيلينبرغ" اعتبارا من عام ١٩٤٢، وكانت مجموعة من الأقليات السوفييتية قد تعاونت مع الألمان إبان الحرب الكونية الثانية ... ففى معرض شكايته، كتب هايبت مخاطبا "فون منده" أن "ألمانيا الغربية لديها أموال طائلة إلا أنها شحيحة فى الإنفاق على

المسلمين ... ثم يُطلب إلى المسلمين أن يظلوا أصدقاء، إن ذلك لأمر عجاب !!".
كذا، فقد كان ولى قيوم دائم الكتابة إلى "فون منده" بشأن ذلك التقتير ... وفى عام ١٩٦١، يفرض "فون منده" لولى قيوم راتبا شهريا مقداره ٤٥٠ مارك ألمانى "تقديرا لخدماته وجهوده السابقة لصالح ألمانيا".

لقد استطاع "فون منده"، أخيرا، جعل قيوم وهابيت يكتبان تقريرا عن سعيد رمضان ... حيث سلطا الضوء على "غالب همت" ساعد "رمضان" اليمنى، والذى سيضحى لاحقا رئيسا لمجلس إدارة المسجد لثلاثة عقود متصلة ليتحول المسجد على يديه مركزا للنشاط الإسلاموى الدولى. لقد كان تأثير "همت" جليا فى بواكير ستينيات القرن العشرين، وذلك للمراقب الأريب فحسب ... حيث كانت فكرته – وكان ما يزال بعد طالباً – أن يدعو رمضان للإمساك بزمام المسجد وإداره دفته عوضا عن "فون منده" والجنود السابقين. أما الآن، فهو أمين خزانة لجنة بناء المسجد، كذا فقد رافق رمضان فى جولته بالشرق الأوسط لجمع الأموال اللازمة لبناء المسجد. وبحلول منتصف عام ١٩٦١، كان "همت" ينظم لقاءات رمضان مع المسئولين البافاريين خلال رحلات الأخير من جنيف قاصدا ميونيخ. كذا، فقد كان همت ملازما لرمضان كظله، وكان يحل محله حين غيابه. هذا، وقد ذهب قيوم وهابيت فى تقريرهما لفون منده إلى أن همت كان يوزع صحيفة لبنانية شيوعية المنزع، هى صحيفة "المجتمع" – حيث أشارا إلى كون همت ذا ميول شيوعية. على أن صحة ذلك الزعم تبقى غير مؤكدة، إلا أنه كان إشارة باكرة إلى كون همت يتمتع بشبكة مصالح وعلاقات دولية واسعة.

وبالرغم من ضآلة حجم أنشطة "فون منده" إذا ما قورنت بأنشطة أمكومليب، إلا أن الرجل قد كان له نفوذ واسع داخل أروقة البيروقراطية الألمانية. وهكذا، شرع مسئولو وزارة الشئون الاجتماعية البافارية فى توجيه أسئلة قاسية لرمضان بشأن

مخاوف الجنود السابقين. ففى أحد اللقاءات، سأله المسئولون عن حجم الأموال التى قام بجمعها بالفعل، فأجاب رمضان بأن المبلغ قد بلغ مليون مارك ألمانى – وهو القدر ذاته الذى ذكره رمضان مرارا – إلا أنه رفض الإفصاح عن المتعهد بمنح تلك الأموال. وحين ذهب المسئولون إلى أن رمضان هو ذاته لب المشكلة – حيث استقطب أفراد المجموعة دون جمع لأية أموال – أجابهم رمضان باستعداده لتقديم استقالته مؤكدا لهم على ضرورة ألا يتم تسييس المسجد.

بيد أن المسجد كان قد سيس بالفعل. فالمسجد الذى أراده الألمان مشروعا سياسيا بادئ الأمر، قد أضحى الآن منقسما على نفسه تتجاذبه المصالح المتنافسة. فعلى مدار عامين كاملين ... ظل الطلبة العرب يحطون من قدر الجنود السابقين، وبخاصة نور الدين نمنقانى – الذى نال نقدا حادا لاذعا، فضاق ذرعا فى نهاية الأمر ليرسل خطابا موجزا فى السابع من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٦١ إلى رمضان طالباً إعفاءه من منصب نائب رئيس مجلس إدارة لجنة بناء المسجد. هذا، وقد وصف نمنقانى اللجنة بأنها لجنة تفتقر إلى القدر اللازم من الاحتراف، كذا فقد وجه سهام النقد إلى رمضان لعدم إيضاحه لرحلته لجمع الأموال إيضاحا بينا، بل ذهب إلى كون رمضان قد هدده بأن يقاضيه حين أثار هذا الأمر فى الماضى. وكانت اللجنة تستعد لعقد اجتماعها فى أواخر تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٦١، لذا طلب نمنقانى إلى رمضان الحضور والإجابة عن الأسئلة بشأن رحلة جمع الأموال. هذا، وقد شهد الاجتماع نهاية الصراع الدائر للسيطرة على مقدرات المسجد.

وأخيراً، وبعد عديد من إرجاءات وإلغاءات، اجتمعت لجنة بناء مسجد ميونيخ فى السادس والعشرين من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٦١ ... حيث انعقدت اللجنة بكامل قوامها المكون من ثلاثين من الجنود السابقين والطلبة. أما سعيد رمضان،

فقد ألقى كلمة مطولة برر فيها أنشطته التى تضاربت الآراء بشأنها بوصفه رئيس مجلس إدارة اللجنة ... حيث قال إن الأموال ترد تباعا فما إن يستكمل التمويل حتى يُشرع فى بناء المسجد. ثم قام رمضان بالكشف عن شخصية ممول بناء المسجد الذى تبرع بمليون مارك ألمانى، فكان رجل أعمال سعودى الجنسية. إذا، فبفضل ذلك المبلغ إلى جانب موجات من تبرعات أقل، ستكون اللجنة قد مضت أشواطا بعيدة على طريق تحقيق هدفها. إلا أن العديد من أعضاء اللجنة قد خامرتهم هواجس وشكوك، إذ تدوول أن غالب همت كان قد فقد الإيصالات الدالة على التبرع خلال رحلة الحج فى العام السابق بما يشير إلى قيامه بإصدار الإيصالات واستلام الأموال ليزعم أنه قد فقد الإيصالات. ووفقا لهذا، يكون بإمكان همت الزعم بفقدان الإيصالات، ومن ثم الاستيلاء على مبالغ بقيمة الإيصالات التى زعم أنه فقدها. إلا أن همت قال إنه لم يفقد سوى بضعة إيصالات فارغة لم تدون بها أية مبالغ. كذا، فقد طلب الجنود السابقون إلى أعضاء اللجنة، همت ورمضان، شرح كيفية قيامهما بتمويل الرحلة إلى الشرق الأوسط – وإيراد هوية الشخص أو الجهة الداعمة لهما.

عند ذلك، عمد رمضان إلى حيلة سياسية بارعة. فعوضاً عن الامتناع عن الإجابة عن أية أسئلة، تقدم رمضان باستقالته وانسحب. فإذا لم يكن قد نال التقدير اللازم، إذا فلا بأس من الاستقالة. وهنا قامت اللجنة بإجراء تصويت لاختيار رئيس مجلس إدارة جديد حيث قام الطلبة بالتصويت لصالح رمضان غيابيا. إلا أن هذه المرة قد شهدت رسوخ قدم الجنود السابقين حيث توافدوا زمرا. أما التضارب بشأن موعد انعقاد الاجتماع – حيث كان من المقرر له أن يعقد فى تشرين الأول/ أكتوبر، ثم أرجئ الموعد إلى بدايات تشرين الثانى/ نوفمبر، ثم أخيرا إلى السادس والعشرين منه – فقد كان فى غير مصلحة الأعضاء حديثى

السن من جماعة "الإخوان المسلمين" الذين كانوا متفرقين – آنذاك – على امتداد الجنوب الألماني. فبدلا من الفوز بتفويض جديد للمنصب على نحو ما كان رمضان يرمي، إذ به يخسر بفارق صوتين اثنين ... ليحل محله على قنطمير – المحارب القوقازى الشمالى العتيد ليضع بذلك رجال "فون منده" مرة أخرى فى دائرة المسكين بزمام مشروع المسجد والمسيطرين عليه. وفى تلك الأثناء، كان رمضان قد عاد إلى الاجتماع متوقعا أن يشهد إعادة انتخابه ... فلما رأى ما حدث، هاج وماج، وانصرف قاصدا الفندق المجاور حيث يقيم. هذا، وقد زعم رمضان أنه كان ضحية مؤامرات ومكايد حيكت ضده، ليقصد جنيف فى اليوم ذاته. لقد بدا أن رمضان يخسر الأصدقاء فى الشرق الأوسط – فقبل شهر فحسب من تلك الأحداث، عمدت المملكة الأردنية إلى سحب جواز سفره الدبلوماسى، حيث كانت تسعى، آنذاك، إلى ترميم علاقاتها مع مصر – والآن قد باءت خطته لإقامة مركز فى ميونيخ قوامه كوادر طلابية مثالية بالفشل. إلا أن رمضان لم يكن ضعيفا كما كان يبدو ساعتها. أجل ... لقد فاز قنطمير فى التصويت، إلا أن لائحة اللجنة ونظامها الأساسى قد استلزما فوز المرشح لمنصب رئيس مجلس الإدارة بغالبية ثلثى الأصوات كحد أدنى. وبالرغم من كون رمضان لم يحشد جميع الطلبة لحضور الاجتماع، إلا أنه قد استقطب أصواتا تكفى لمنع قنطمير من الفوز بالمنصب. كذا، فلم يدرك رمضان الخطأ الذى حدث حتى قام بيروقراطى ألمانى ثاقب النظر بالتعقيب كتابة فى هامش محضر الاجتماع "إن نصاب ثلثى الأصوات لم يكتمل". إذا، فقد أخفق قنطمير فى الفوز فى التصويت ... ليبقى رمضان رئيسا لمجلس إدارة لجنة بناء المسجد.

أدت الوقائع السابقة إلى إنهاء وجود الجنود السابقين فى لجنة بناء المسجد، إذ قرروا أن ليس بإمكانهم هزيمة رمضان. أما حسن قصايب، فقد استقال من

منصبه كسكرتير للجنة، وأما الجنود السابقون فقد أبوا أن يشاركوا فى أية أنشطة لاحقة ... الأمر الذى جعل زمام اللجنة فى أيدى الطلبة، وكذا فى أيدى الأمريكيين على ما كان يبدو. ويا للمفارقة ... فقد انتهى النفوذ الألمانى على مقدرات اللجنة نتيجة ملاحظة فنية لم ينتبه إليها إلا بيروقراطى ألمانى. لقد دأب "فون منده" على استغلال بيروقراطيى بافاريا لاجتذاب نور الدين نمنقانى لتشكيل جماعته وتعبيد الطريق أمام بناء مسجد ميونيخ، وقد حدته آمال لخلق جبهة من المسلمين ذوى ولاء للأهداف السياسية الألمانية ... أما الآن، فقد تم تجاوزه بواسطة لاعب أكثر حذقا وأوفر مهارة.

إن الخطأ الذى ارتكبه "غرهارد فون منده" كان ارتكانه بشدة إلى أناس ذوى ماض مشين: العاملين السابقين فى الأوستمنستريوم. إن المهام السابقة لأولئك العاملين كانت ضمانة بأنهم سيكونون أوفياء لفون منده والقضية الألمانية، إلا أن أنشطتهم النازية قد أكسبتهم سوء الأحدوثة، إذ لطخت سمعتهم، ولم يعد – بالتالى – ممكناً الوثوق بهم. ففى العالم الثالث، وصمتهم الدعاية السوفييتية بأنهم "نازيون"، بينما نظر الإسلاميون، من أمثال سعيد رمضان، إلى مصداقيتهم الدينية الواهية بازدراء ... حتى أن إبراهيم كوجا أوغلو، ذلك المخضرم، قد وجه بعضا من سهامه بحق نمنقانى ناعتا إياه بـ"دمية بيد النازى". كل ذلك جعل من اليسير على رمضان أن يدخل الحلبة ثانية، ليتيه بشبكة علاقاته الدولية ويفاخر بها، ويحيى الوعد ببناء مسجد يأخذ بالألباب.

إن الاستفتاء غير الموفق هذا ... كان نقطة تحول هامة فى تاريخ بناء المسجد. إذ عمد "رويرت دريهر" وباقى عصبته الأمريكية إلى تمتين علاقاتهم بسعيد رمضان أملا فى أن ينجح رمضان فى أن يجعل للغرب مصداقية وصوتا مسموعا فى العالم الإسلامى. وكان الهدف ... أن يكون مسجد ميونيخ منبرا لرمضان. ولتحقيق هذا

الهدف، تم الزعم بأن الاستخبارات الأمريكية قد مارست ضغوطا على الأردن لمنح رمضان جواز سفر، وأنها قد مولت مشاريع "لتلميع صورته" من أمثال "مؤتمر الإسلام الأوروبى" الذى نظمه "دريهر". وبما أن تلك الخطط قد حالفها التوفيق، فقد أضحى "الإخوان المسلمون" يسيطرون على مقاليد مشروع بناء مسجد ميونيخ. إذا، فقد بقى سؤال هام ... أيعمد "سعيد رمضان" إلى مساعدة أصدقائه القدامى، أم سيضرب عنهم صفحا ليسلك طريقا من صنعه هو؟

بخروج الجنود السابقين من اللجنة، شرع رمضان يتحرك بسرعة ... إذ عمد إلى ملء منصب سكرتارية اللجنة الشاغر نتيجة استقالة حسن قصايب، حيث وقع الاختيار على "أحمد شميده"، وهو شاب ألمانى اعتنق الإسلام عام ١٩٥٧، وكان يصدر مجلة اسمها "الإسلام" منذ عام ١٩٥٨، حيث أصبحت تلك المجلة لسان حال لجنة بناء المسجد – بما يجسد ملمحا هاما من رؤية سعيد رمضان الرامية إلى خلق كيان شبيه بجماعة "الإخوان المسلمين" باللجنة ... الأمر الذى استدعى طائفة من المؤسسات، وليس مجرد مسجد فحسب، كانت إحداها مؤسسة أو أداة دعائية مثلتها مجلة "الإسلام" خير تمثيل.

وفى آذار/ مارس ١٩٦٢، قام سعيد رمضان بتوحيد الطلبة المسلمين فى ألمانيا تحت لواء منظمة أطلق عليها "مجلس الجمعيات الإسلامية بألمانيا". أما اختيار الطلبة كلبنات تكوين المجلس، فكان نمطيا ... فكما الحال فى لجنة بناء المسجد، لم يكن رمضان متحمسا للمسلمين التقليديين من أمثال الجنود السابقين، مثله فى ذلك مثل جميع الإسلامويين، إذ كان رمضان يرغب فى تكوين كادر إسلامى أفضل ... الأمر الذى استدعى تواصلا مع طلبة حديثى السن يتسمون بالانطباعية وعدم تشكل ملامح دربهم أو تضاريس شخصياتهم بعد. هذا، وقد عقد اجتماع "مجلس الجمعيات الإسلامية" فى السابع عشر والثامن عشر من آذار/ مارس ١٩٦٢

بمدينة "ماينتس" الألمانية بحضور مجموعات طلابية من العديد من مدن ألمانيا الغربية، كذا بحضور خمسين ممثلاً قاموا بانتخاب "شميده" سكرتيرا للجنة بناء المسجد لإحداث التناغم المطلوب. ووفقا لمصادر "فون منده"، فقد قام سعيد رمضان بتمويل الاجتماع، وهو ما يستدعى سؤالاً حول هوية القائم بتمويل رمضان، إلا أن المصادر لم تشر إلى ذلك. إن الهدف الأساسى من وراء هذا الاجتماع كان توجيه انتقادات لاثنين من ألد أعداء رمضان ... مصر "الناصرية"، و"إسرائيل". أما مقالة رمضان التى انتقد فيها جمال عبد الناصر، فحتما قد لاقت استحسان داعميه الأمريكيين، إلا أنه يصعب معرفة انطباعاتهم بشأن انتقاده لإسرائيل ... إذ لم تكن العلاقات فيما بين واشنطن وتل أبيب بمقدار القوة التى هى عليه الآن. فلعل "وكالة الاستخبارات المركزية" كانت على استعداد - آنذاك - لتقبل انتقاد رمضان لإسرائيل بغية الاحتفاظ بمناوئ شرس للشيوعية إلى صفها.

وحين أضحت قاعدة رمضان "الألمانية" تنعم بالاستقرار، شرع رمضان ينشط بقوة وحماسة على الصعيد الدولى. ففى أيار/ مايو ١٩٦٢، سافر هو وأحمد شميده إلى مكة للمشاركة فى تدشين رابطة العالم الإسلامى، تلك الرابطة التى ما تزال، إلى الآن، أهم تجمع ينتظم المسلمين على امتداد العالم بأسره. وكان ذلك تتويجا لعقود من الجهود الرامية لتوحيد المسلمين كافة ... إن لم يكن تحت لواء خليفة للمسلمين كما كانت الحال فى ظل دولة الخلافة الإسلامية سابقا، ففى كيان عالمى بمقدوره إرساء معايير وضوابط، وتمثيل المسلمين كناطق بلسانهم. هذا، وقد اضطلع رمضان بدور كبير فى "إرساء رابطة العالم الإسلامى" حيث شارك فى صوغ اللوائح المنظمة. كذا، فقد قاد جناح "السلفيين الجدد" خلال مؤتمر التدشين - وبخاصة جماعة "الإخوان المسلمين" ... حيث كان الهدف جعل الرابطة كيانا سياسيا أكثر سفورا. وخلال المؤتمر، تقمص رمضان أكثر من دور ... إذ حضر

المؤتمر بصفته رئيسا لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وهو الكيان الذى قام رمضان بإحيائه بالاشتراك مع أمين الحسينى – مفتى القدس، فضلا عن كونه ممثلا عن مسلمى ألمانيا الغربية. وبالنظر إلى ما لتدشين رابطة العالم الإسلامى من أهمية، فقد عمد "غرهارد فون منده" إلى إرسال ولى قيوم إلى المؤتمر بهدف جمع المعلومات. وقد قام قيوم بإرسال مذكرة مفصلة عن الكيان الوليد، بيد أنه لم ينجح فى توكيد النفوذ الألمانى ... ففى نهاية المؤتمر، قام ستة عشر مسئولا سعوديا بزيارة إلى ألمانيا الغربية، وذلك لمقابلة سعيد رمضان، وليس "فون منده" أو أيا من المسئولين الحكوميين. وبالرغم من ضآلة المعلومات عن تلك الزيارة، إلا أنها قد أوضحت كيف نجح رمضان فى تدويل "مسلمى ميونيخ"، و"مسجد ميونيخ" إلى درجة لم يكن ليتخيلها "فون منده".

لقد بدا أن نشاط سعيد رمضان وحضوره هنا وهناك لأمر فى صالح الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن الأرجح أن واشنطون لم تكن تدرك جميع ما كان يقوم به الرجل. فرويرت دريهر، وبصفة خاصة، قد بدا سعيدا لتمويل مؤتمرات رمضان، بيد أنه غالبا كان لا يعلم سوى شذرات قليلة عن أنشطة ذلك الإسلاموى، إذ لم يكن يعلم أن رمضان رجل شديد الاستقلالية لا يمكن لأحد السيطرة عليه أو إخضاعه – حتى بواسطة منظمة إسلامية، فما بالنا بأخرى دون ذلك. إلا أنه، وفى الأجل القصير، ساعد انخراط رمضان فى "رابطة العالم الإسلامى" فى تمتين مصداقية الجماعة بشأن مناهضتها للشيوعية، وهو عين ما كانت واشنطن ترمى إليه. وبالرغم من أن العديد من المراقبين – آنذاك – كانوا يرون أن الإسلام هو "العدو الطبيعى" للشيوعية، إلا أن ذلك لم يكن "تحصيل حاصل". فعلى سبيل المثال، وبعد مضى تسعة أيام فقط أعقبت تدشين الرابطة، عمد تنظيم منافس – وهو مؤتمر العالم الإسلامى – إلى عقد مؤتمر فى العاصمة العراقية بغداد. ونظراً لكونه

التنظيم الإسلامى الأبرز على امتداد العالم آنذاك، فقد رعى الزعيم العراقى عبد الكريم قاسم فعاليات اجتماعات المؤتمر. وعبد الكريم قاسم هو [ديكتاتور] عسكرى ذو ميول يسارية أطاح الملكية فى العراق عام ١٩٥٨ . وبطبيعة الحال، ونظرا لحرصه واهتمامه بتوحيد صفوف المسلمين وتنظيم جهودهم، كان من الطبيعى أن يكون سعيد رمضان من بين الحضور، بل كان يمكنه المنافسة على رئاسة المؤتمر ... إلا أن عبد الكريم قاسم كان يقود مسارا مواليا للسوفييت، إلى الحد الذى استشعر رمضان معه أن وجوده بالمؤتمر ينطوى على خطر يتهدد حياته. لذا، فقد عمد إلى إرسال أحد معاونيه لحضور المؤتمر ... وهو "محمود موفتيتش"، الجندى البوسنى السابق فى أسراب الدفاع النازية، والذى تربطه علاقات بمفتى القدس أمين الحسينى، واتحاد مسلمى ألمانيا فى هامبورغ.

هذا، ومن الأرجح أن تكون تلك الفترة هى أكثر فترات حياة سعيد رمضان خطرا وتهديدا ... إذ أعلن جمال عبد الناصر أن رمضان أحد قادة "الإخوان المسلمين"، أما الشرطة السويسرية فذهبت إلى أن مجموعة قوامها ستة رجال قد أرسلت إلى سويسرا بهدف اغتيال رمضان، حيث اعتقلت بعضا منهم وتم إجهاض المحاولة. وخوفا منه على ما قد يتهدد حياته ويعرضها للتهلكة، فقد اقتنى مُسدساً يسهل إخفاؤه بمعاونة الشرطة، لم يحضر رمضان اجتماع مؤتمر العالم الإسلامى ببغداد، إلا أنه كان ما يزال قادرا على مساعدة أمكومليب لتمرير أحد أفضل من يلهب حماسة المسلمين ... إنه "غريب سلطان".

أما سلطان فكان يشحذ مهاراته للدعاية المستترة لأمكومليب، وذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية ... وكانت إحداها كلمة ألقاها فى محفل "الانترناشيونال هاوس" الجليل، وهى مؤسسة لا تهدف إلى الربح أسست عام ١٩١٩ لتكون ملتقى الباحثين من أرجاء العالم كافة للاجتماع وتبادل الأفكار ووجهات النظر. وهناك ... قدم

سلطان نفسه كباحث تترى، حيث ألقى كلمة من تسع عشرة صفحة عنوانها "الكولونيالية وأنماطها الحديثة".

واستهل سلطان كلمته بالهجوم على الكولونيالية ... ذلك النهج الذى يجد قبولاً واسعاً لدى الطلبة والباحثين المنتمين إلى العالم النامى. إلا أنه أعقب ذلك بمد بساط الهجوم ليشمل الاتحاد السوفييتى الذى فرض هيمنته على عديد من البلدان. هذا، وقد اتسمت المناقشات بالحيوية والنشاط. وبعدها بأيام قلائل كتب سلطان مذكرة إلى "إسحاق باتش"، الذى كان يترأس - آنذاك - قسم المشاريع الخاصة بأمكومليب فى نيويورك إذ كان "روبرت دريهر" قد أزاحه من ميونيخ.

وفى مذكرته، كتب سلطان يقول: "وفقاً لما يمكن لى أن أحكم به، فإن التقرير قد نجح فى تحقيق أهدافه ... إذ اشتعلت مناقشات مستعرة حوله، حيث انتهيت إلى انطباع مفاده أن الطلبة الحضور، رغما عن كونهم يدرسون بالجامعات الأمريكية، إلا أنهم لسبب أو لآخر كانوا يتبنون وجهة النظر السوفييتية لا الأمريكية، أو لعلهم لا يدرون عن وجهة النظر الأمريكية شيئا. لقد كان غريب سلطان - آنذاك - مواطناً أمريكياً، إذ ارتحل من ميونيخ إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٧، تاركاً ميونيخ بلا رجل مسلم قادر على تهذيب زوايا "كوجا أوغلو" الحادة. إلا أن سلطان لم يكن خارج المشهد بالكلية، فقد استمر فى العمل لدى أمكومليب بقسم "المشاريع الخاصة"، حيث كان له انتشار حارب بموجبه الشيوعية فى الجبهة الداخلية. أما الوجوه التى تقمصها فتعددت واتسعت وكانت جد مبتكرة، إذ كان سلطان يلتزم الحقيقة قدر الإمكان لخلق جبهات لها مصداقيتها. ففى كلمته بالانترناشيونال هاوس، تم تقديم سلطان على أنه باحث بمعهد دراسات الاتحاد السوفييتى (إحدى جبهات أمكومليب الأمامية)، بيد أنه أيضا كان ممثلا معتمدا "بمنتدى الناخبين الجمهوريين والديمقراطيين"، وكاتبا حرا بمجلة "الاتحاد الأمريكى لنقابات العمال"، فضلاً عن كونه

مؤسساً للعديد من المنظمات المزعومة مثل "المنظمة الثورية الوطنية لتحرير شعوب الاتحاد السوفييتى الإسلامية"، و"منظمة لاجئى الاتحاد السوفييتى المسلمين". وبصفته رئيسا لقسم "الكتاب" بتلك المنظمة الأخيرة، فقد سافر غريب سلطان إلى القاهرة عام ١٩٦٢ لإلقاء كلمة بعنوان "الكتاب السوفيو-آسيويون ومعضلة الإبداع".

واستعراضاً لمهاراته فى "التشبيك"، عمد سلطان إلى تزوير دعوة لحضور "مؤتمر بغداد" عن طريق استغلال معارفه الباكستانيين ... إذ كتب إلى "منصور الدين أحمد" من "المعهد المركزى لدراسات الإسلام" ليسأله إن كان يرغب فى أن يكون الشخصية المحورية لمؤتمر حول تقرير المصير. وفى خطاب إلى "منصور الدين" بتاريخ الخامس من نيسان/ أبريل ١٩٦٢، أرفق له سلطان شيكا بمبلغ مائتى دولار أمريكى صادرا عن "لجنة تقرير المصير"، وهى كيان دعائى سرى يدار بواسطة "اللجنة الوطنية لأوروبا الحرة" – وهى مؤسسة شقيقة لأمكوملیب. كذا، فقد كتب سلطان إلى منصور الدين مبديا رغبته فى حضور "مؤتمر بغداد"، إلا أن منصور الدين أجابه بأن الحصول على دعوة تمكنه من الحضور لهى مهمة صعبة تتطلب قدرا كبيرا من البراعة، ذلك أن الديكتاتور العراقى عبد الكريم قاسم كان يعارض حضور أى أمريكى فعاليات ذلك المؤتمر ... بيد أن منصور الدين تعهد لسلطان أن يعمل على استمالة صديق له هو "إنعام الله خان" – الأمين العام لمؤتمر بغداد. كذا، فقد عمد سلطان إلى التحدث إلى سعيد رمضان الذى وعده بمخاطبه أصدقائه للاصطفاف حول سلطان وتمكينه من حضور المؤتمر. وفى النهاية، وافق عبد الكريم قاسم على حضور سلطان المؤتمر، فكان بذلك الممثل الوحيد للولايات المتحدة الأمريكية.

هذا، وقد عمد سلطان إلى استغلال فترة إقامته لحضور المؤتمر أقصى استغلال ممكن ... إذ عقد جلسات خاصة مع إسلاميين بارزين لإقناعهم بشرور الشيوعية

ومثالبها، كذا فقد أجرى حوارا مع رئيس الوفد السوفييتي، وحوارات لتليفزيون بغداد، فضلا عن إلقائه كلمة شن فيها هجوما عنيفا على الاتحاد السوفييتي والصين لممارساتهما الكولونيالية في آسيا الوسطى. بيد أن الوضع في بغداد لم يكن مستقرا، حيث طلب إليه المغادرة. ففي لقاء معه، أورد سلطان أن "شخصا أخبره بأنه مهدد بالاختطاف أو الاغتيال". لذا، غادر سلطان بغداد مبكرا، إلا أن مؤتمر بغداد قد ظل علامة فارقة في مساره العملي، ونقطة بارزة في مسار الولايات المتحدة الأمريكية لتوظيف "الإسلام" واستغلاله لمآربها إبان خمسينيات القرن العشرين، ويرجع الفضل في ذلك - جزئياً - إلى جهود سعيد رمضان.

أما أكبر الخاسرين في هذا الأمر برمته، فكانوا مسلمي ميونيخ. ففي البدء، كان المسئولون الألمان حريصين على دعم مشروع مسجد ميونيخ - فالمشروع، في النهاية، كان فكرة "غرهارد فون منده" التي نفذها نور الدين نمنقاني، إمام أسراب الدفاع النازية سابقا. وحين اضطلع سعيد رمضان بمسئولية المشروع لاحقا، ظل "فون منده" يؤمن بضرورة قيام ألمانيا الغربية بدعم المشروع نظرا لما ستحظى به من علاقات عامة إيجابية. هذا، وقد نحى "فون منده" باللائمة على رمضان بشأن المشاكل القائمة بلجنة بناء المسجد، إلا أنه خلص إلى وجوب مضي ألمانيا قدما بهذا المشروع عن طريق توفير قطعة أرض لإقامة المسجد عليها، والتبرع بمائة ألف مارك ألماني لإتمام المشروع.

إلا أنه وقد أصبح جليا أن أصدقاء "فون منده" من الجنود السابقين قد استبعدوا نهائيا من المشروع ... فقد أضحى تحمس ألمانيا ومبادرتها الكريمة هباء منثورا. وحين قام أحمد شميده وغالب همت وآخرون من أتباع سعيد رمضان بمخاطبة وزارة الشئون الاجتماعية الباقارية عام ١٩٦٢ للمساعدة في تخصيص قطعة أرض لإقامة المسجد، تم رفض مطلبهم بطريقة مهذبة لبقة ... حيث أُخبِروا

بأن الوزارة كانت معنية بالأمر لأن المشروع كان يستهدف اللاجئين، أما وقد زالت عضوية لجنة بناء المسجد عن أولئك اللاجئين، فلم يعد للجنة حاجة إلى دعم حكومى. وبما أن حكومة ألمانيا الغربية قد كفلت حرية المعتقد، فقد كان الطلبة أحرارا فى استئناف تحقيق أهدافهم، إلا أنهم لن يحظوا بدعم الدولة. هذا، وربما كانت معارضة رمضان قد بدت أمراً حسناً، إلا أنها قد أكدت حقيقة كون "فون منده" وجملة حلفائه فى "بافاريا"، و"بون" قد أخفقوا فى مهمتهم. وبعد ذلك بعام، وتحديدا فى العاشر من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٣، أورد نور الدين نمنقانى أن كنيسة القديس بولس، حيث ولدت الفكرة برمتها ليلة الكريسماس الباردة من عام ١٩٥٨، لم تعد متاحة لأن يمارس فيها الجنود السابقون صلواتهم ... الأمر الذى أوضح أنه لم يعد لديهم مكان لأداء الصلاة ... فما بالنا بمسجد متكامل الأركان؟!

أما نمنقانى، فقد كان يشعر بالمرارة والأسى. فبعد شهور أربعة من الاجتماع العاصف الذى فشل فيه، هو والجنود السابقون، فى إزاحة سعيد رمضان ... عمد إمام أسراب الدفاع النازية إلى كتابة خواطره وانطباعاته عن الأحداث[٩٥] ... تلك الخواطر التى شُذِبت وأعيد صياغتها إما بواسطة "فون منده"، وإما -وهو الأرجح- بواسطة مارغريت دولينغر، زوجة حسن قصايب الألمانية ... حيث اتشح النص بوابل من الهجوم التهكمى على سعيد رمضان. فعلى سبيل المثال، ورد بالنص أن "سعيد رمضان كان متشبثا بلجنة بناء مسجد ميونيخ كأمل وحيد متبق". وبخلاف الرطانة المستخدمة، اتسمت آراء نمنقانى وملاحظاته بحسن الحدس ونفاذ البصيرة ... ما جعلها تنفذ إلى أعماق دوافع رمضان وأنشطته، كذا فقد كانت تمثل رؤية ثاقبة سبرت أغوار الراديكاليين الإسلاميين عبر عقود عديدة.

هذا، وقد أورد نمنقانى أن سعيد رمضان قد وجه سهام النقد إلى اللاجئين رامياً إياهم بجهلهم بالإسلام، وإفراطهم فى معاقرة الخمر. فوفقا لنمنقانى، كان

علىّ رمضان أن يكون أكثر رحمة فى سعيه لفهم أولئك الجنود السابقين. فجهلهم لا يعد مستغربا إذ نزحوا من بلد شيوعى سعى، على نحو ممنهج، إلى تدمير شوكة الدين فى نفوس أتباعه. فبدلا من أن يعمد رمضان إلى الترفق بنمنقانى، وإرشاده إرشادا فيه رفق وحنو، قام رمضان بتعنيفه وتوبيخه وإعطائه درسا فى كيفية التعامل، فضلا عن تهديده بالكتابة إلى السلطات كاشفا عن زلاته ... وقد أخبره رمضان بأنه قد امتنع عن القيام بذلك حرصا على مشاعر الألمان وعدم إخبارهم بكونهم قد انتقوا إماماً غير كفء للاضطلاع بمهام أوكلت إليه. وبالرغم من كون رمضان قد شارك المسلمين احتفالاتهم فى الأعياد، إلا أنه قد اختفى تماما حين عمد نمنقانى إلى المشاركة فى الاحتفالات ... إذ كان لا يضمر أدنى احترام للرجل المسن، فى دلالة واضحة على أن ثورته لم تكن لتعبأ بالتقاليد ألبتة. فمن وجهة نظر رمضان، كان نمنقانى إماما رجعيا ... وكان نمنقانى يعلم بهذا الضرب من الاتهام، إذ سبق له سماعه فى الاتحاد السوفييتى حين ألقى به فى المعتقل بحجة أنه ليس ثوريا بما فيه الكفاية.

ويكتب نمنقانى عن رمضان: "فى واحدة من كتاباته، يعلن رمضان أن المسلمين الذين يدرسون فى ألمانيا سيضحون ذات يوم حكام بلدان العالم الإسلامى، وأن اللاجئين لابد وأن يحرصوا على الإذعان لرأيهم والائتمار بأوامرهم". كذا، فقد أورد نمنقانى أن رمضان قد أخبره بأن أولئك الرجال الطاعنين فى السن لن يكون باستطاعتهم العودة ثانية إلى ديارهم ومواطنهم، ذلك لأنهم ليسوا مسلمين حقيقيين ... فإذا ما عادوا إلى بلدانهم فسيتسببون فى إحداث أزمات هناك. إذا، فالاتحاد السوفييتى هو أحسن حالا فى ظل غيابهم عنه.

إلا أن المؤكد – عند هذا المنعطف – هو استحالة معرفة ما قاله سعيد رمضان بالفعل. إن هذه الروايات لتعكس وجهة نظر نمنقانى، إلا أنها تتفق وذكريات صغار

مساعدى رمضان عنه ... الذين اعترفوا بقيامه بازدراء الجنود السابقين. هذا، وقد أوضحت لقاءاتى وبعض أولئك الطلبة ممن لا يزالون على قيد الحياة – أن ثمة مشاكل كانت تواجههم بشأن "نسخة" الإسلام التى اعتنقها الجنود السابقون. وقد كانت آراء رمضان وجدالاته تجسيدا للفكر الإسلاموى البحت، بما يشبه تماما أفكار "سيد قطب" ومن بعده "أسامة بن لادن". فالزعم بأن الجنود السابقين لا يستحقون العودة إلى ديارهم وأنهم أسوأ حالا من الشيوعيين، كان يتفق وأساسيات الإسلام الراديكالى.

أما إبراهيم كوجا أوغلو، فقد كان يذكر المجتمع الإسلامى – على الدوام – بما منى به من خسارة ... فالإمام – بغلظته وفظاظته وفجاجته العلمية ... وهو الذى أنشأ أول جماعة فى ألمانيا الغربية لدعم اللاجئين ... كان قد أزيح أولا على أيدى الألمان لقبوله دعما أمريكيا، ثم على أيدى الأمريكيين أنفسهم لصالح سعيد رمضان الأبعد دربة والأكثر صقلا. لقد تم استخدام الرجل وتوظيفه من قبل "عناصر سياسية"، إلا أن هدفه الأساسى – عبر دربه الممتد – كان خدمة اللاجئين المسلمين فى جنوب ألمانيا. وبافتقاره إلى الدبلوماسية كما العهد به دائما من افتقار إليها، نحى كوجا أوغلو باللائمة على "فون منده" لاستمالته لنمنقانى منذ سنوات خمس انصرمت.

"إنه لمن الخزى لجماعتنا الدينية الإسلامية فى غرب أوروبا [الإسلام] أن نتلقى اتصالات من ضيوف أجانب يسألون عن موضع لإقامة الصلاة – عن مسجد أو ما شابه ... فيكون علينا الرد بعدم وجود ما يطلبونه. إن ألمانيا الاتحادية تسعى لرأب الصدع الذى أحدثه الألمان إبان الحرب الكونية الثانية. ويبقى السؤال: ما بال اللاجئين المسلمين هم فقط من خسر كل شىء فى تلك الحرب؟! ... وما بالهم هم وحدهم من يتم تجاوزهم ويعمد إلى تجاهلهم؟!"